بصائر

مريم عبد الرحمن المطوع

kindle
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d110d

دار روزا للنشر

بصائر

مريم عبد الرحمن المطوع

تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة:

مكتبة الحبر الإلكتروني

أسعد الكناني

إهداء

إلى مُلهمتي، إلى من دفعني دفعاً إلى كلّ إنجازٍ قدّ تمّ..

وكلّ إنجازٍ قادمٍ لم يأتِ بعد..

إلى "أمّي"..

وإلى كلّ أختٍ لي لم يجمع بيننا النّسب..

وجمعَ بيننا الحبّ في الله فقط..

كلّ كلمة قيلَت –ولو لم تلقينَ لها بالاً- كانت سبباً في هذا النتاج..

فلكنّ كلّ الشكر والامتنان..

وإلى عائلتي صغيرها وكبيرها،

لكلّ فردٍ منكم بصمة.. علِمها أم لم يعلمها..

فشكراً لكل من أرسلهُ الله لي بكميّة من سعادةٍ لا تنتهي..

شكراً!

مقدمة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، أمّا بعد..

فإن الله تعالى يقول في محكم كتابه: "كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"..

وحيث إن تفسير الآيات هو علمٌ يُعنى به أهله، فإن التدبّر بيدنا جميعاً.. أنا وأنت!

أن تقرأ مرة لتفهم، وتفهم لتعمل،

وتقرأ أخرى لتفهم فهماً آخر،

وثالثة لفهمٍ ثالث..

وتناقش أحدهم لتخرج بفهمٍ رابع!

وفي كلّ مرةٍ تنبهر، كأنك تقرأ القرآن لأول مرة!

ما سيأتي في هذه الصفحات ليس تفسيراً للقرآن..

بل إحدى النظرَات إلى آياته، واحدة من أفهامٍ لا نهائية،

بعدد من قرأ، ويقرأ، وسيقرأ القرآن في أزمانٍ وأماكن شتى..

قد تكون جديدةٍ على أحدنا، مألوفةً عند آخرين،

مذكرة للبعض، ومؤثرة لبعضٍ آخر..

اقرأها بقلبك وجوارحك، فالقرآن لم يُنزّل ليُختم مرّةً وعشرا، فقط!

بل ليكون خُلُقاً، وحياةً، وعملاً.. وراحةً من حياةٍ مُتعبة!

"الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"

(الفاتحة: 2)

الآية التي نكرّرها في كلّ صلاة مرّات ومرات..

"الحمدلله"

الكلمة التي نقولها كإجابة لـ (كيف حالك؟) في اليوم عشرات المرّات..

كيف سيكون الحال لو أننا شعرنا بها في "كلّ" مرة نطقنا بها؟

"الحمدلله رب العالمين"

الحمد بحدّ ذاته، نعمة تستحقّ الحمد!

الحمد بحدّ ذاته، نعمة أعظم من كلّ النعم التي نحمد الله عليها!

دعونا كلّما نطقنا بها نمرّر على أذهاننا سيل النعم التي لا حصرَ لها!

إسلامنا، وقوفنا بين يدي ربنا، رحمته بنا،

سعادتنا التي في قلوبنا، بيتنا وعائلتنا، طعامنا وشرابنا..

رمضان الذي بلّغنا إياه ونحن في صحة وعافية..

القرآن الذي مكننا من تلاوته بيسرٍ وسهولة..

أجهزة جسمنا التي تعمل ليلَ نهار بكلّ دقةٍ من دون أن نشعر أو نقلق!

وتستمرّ القائمة طويلة طويلة لا منتهية!

"الحمدلله رب العالمين"

ألم يحن الوقت لنقف عندها طويلاً طويلا، في كلّ مرة نقول "الحمدلله"؟

"فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ"

(البقرة: ٢٢)

المال الذي تقدّسه أكثرَ من الله؛

الزينة التي تظهرينها تناسياً لأمرِ الله؛

كلّ معصية اخترنا -يوماً- أن تكون "أهمّ" من حقّ الله؛

اخترنا أن يكون هناك شيء -أو شخص- ندّا لله!

ونحن نعلم!

أن لا تجعلَ لله ندّا،

يعني ألا تحبّ أحداً كحب الله،

ولا تطيعه كطاعة الله،

ولا تخافه كالخوف من الله!

" يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا"

(البقرة: 26)

مثلٌ واحد، يهدي الله به أو يضل كثيراً من خلقه!

مثلٌ واحد، البعوضة، يُقابل بإيمان وتعظيم، أو إنكار واستهزاء..

أنت.. تملك القرار، في ردود أفعالك تجاه المواقف المختلفة..

في أن تجعل من أحد الأمور خطوة للنجاح، أو قربة إلى الله، أو زيادة في حصيلة السعادة لديك..

أو أن تجعله شقاء لك، بعداً عن الله، أو فشلاً ذريعاً...

هو ذات الشيء، لم يتغير، ولكننا نحن الذين نحدد طريقة تجاوبنا معه!

ولكن فوق ذلك، الله هو الذي يهدي ويضل..

فنسأل الله أن يجعل لنا في كل آية عبرة، وفي كل نعمة أو بلاء قرباً منه وزيادة إيمان.

"وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً"

(البقرة: ٨٠)

مجرّد "مس" و"لأيام معدودة".. والله غفورٌ رحيم!

كم مرّةً فعلنا ما فعلنا ونحن نظنّ أنه وكأنّما مقعدنا في الجنة قد حُجِز!

"قُل أتخذتُم عند الله عهداً" ؟

من ضمِنَ لنا رضوان اللهِ؟ من أعطانا صكّ الغفران؟

"أم تقولون على الله ما لا تعلَمون"

قد يدفعنا الجَهل بالله إلى مغاراتٍ ضيّقة مُعتمة..

فلا يغرّنا بالله الغرور.. ولا ينظر أحدنا إلى حقارة ذنبه، بل إلى عظم من يعصي!

"قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ"

(البقرة: ١٢٦)

ردًّا على دعوة إبراهيم عليه السلام،

"وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر"

يخبره تعالى أن هذا الرزق لا يقتصر على المؤمنين فقط!

بل إنه -تعالى- يرزق المؤمن. والكافر على السواء..

"فأمتّعه قليلا"

لكنه متاع قليل، نهايته الأبدية جهنّم وبئس المصير..

فلا ينظر أحدنا إلى أرزاق غيره وأحوالهم بنظرة تحسّر وحسد..

فإن الرزق الحقيقي هو رزق الآخرة، ولا غير ذلك!

"فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ"

(البقرة: 148)

كم سباقٍ نعيشه في الدّنيا؟

طالبٌ يسابقُ درجات الامتحانات،

وآخر يركُض وراء معدّل الجامعة..

وآخر يبحثُ عن عملٍ وجمع أموال..

وآخرُ يسعى لترقيةٍ في وظيفته..

وأخرى تتوقُ لرضى زوجٍ أو تربية أطفال..

وأخرى تبحثُ عن مشروعٍ يدرّ عليها الدّخل..

وها نحن في مضمار سباقٍ لا ينتهي..

لكن..

ما الذي يستحق أن نتسابق فيه حقاً؟

"فاستبِقوا الخيرات"

الخير الذي يبقى ولا يفنى!

المراتب التي نصلها خلال السباق، هي مراتبنا في حياةٍ لا تنتهي..

إنه السباق المصيري، إنه السعي الذي لا يضيع هباءً..

السباق لله، ولأجل الله، ولما يحبه الله ويرضاه..

"وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً"

(البقرة: ١٧١)

الذينَ لا يكون للكلام على أسماعهم إلا وقعَ صدى الحروف التي لا معنى لها..

أولئك الذين مهما تطرق الدعوة أسماعهم فهي لا تصل إلى قلوبهم!

"صمّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون"

دع سمعك وبصرك وقلبك مفتوحاً دوماً للحق، من أيّ كان، على أي وجهٍ كان.. !

وأعرِض عن من كانت قلوبهم غلفٌ فهم لا يفقهون.

"وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"

(البقرة: 204)

الذين يقولون أمامك ما لا يبطنون، يُرضون كلّ الناس، ولو بالنّفاق،

يتبنّون آراء تعجبُ هؤلاء.. ثمّ يتحدّثون بأخرى لتعجب أولئك..

هدفهم أن يكون قولهم مما "يعجب" به النّاس في الدنيا..

ولو كان ذاك بحلف الأيمان وادّعاء الصدق!

"ويُشهد الله على ما في قلبه"

لكنّ الله وحده يعلم ما في الصدور،

يخادعون الله وهو خادعهم..

قد ينجح أحدهم في لفت انتباهي وانتباهك، قد يكسبون إعجاب الكثيرين،

قد يتغنّى بأقوالهم الناس في كل حين، قد يحبّهم البعض وينبهرون بقولهم..

ولكن..

"وهو ألدّ الخصام"

الله يعلم أنهم كاذبون، وأنهم يبطنون ما لا يظهرون،

قد يرحمنا الله بإخفاء سرائرنا عن العالمين..

لكنه تعالى يعلم السر وأخفى، فلا يغترّ أحدنا بستر الله، ولا بكلام الناس، ولا برضاهم ولا سخطهم.. فالله يعلم حقيقة نوايانا، فهو أعلم بنا من أنفسنا!

فلا تجعل همّك إعجاب الناس، ولا نفاق المجاملات،

وليكن همّ أحدنا في كل قول، هو الله، ولا شيء غير الله،

لأننا مكشوفون أمامه لا تخفى عليه خافية!

"وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ"

(البقرة: ٢٤٠)

إلى كلّ الذين يدّعون ظلم الإسلام للمرأة،

إلى أولئك الذين يتغنّون بقوانين البشر الوضعية الغربية لحقوق المرأة..

لو نظروا في القرآن -قليلاً- لوجدوا فيه العجب!

فالرجل يُكرِم المرأة ويمتّعها، حتى وهو متوفى!

فتسكن في بيته، تأكل وتشرب وتبيت.. سنة كاملة!

وهي -مع ذلك- مخيّرة..

"فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ من معروف"..

والله إن أعظم تكريم للمرأة أن تُخصص لها آياتٌ تتلى..

حتى تحفظ حقوقها وتُعلي شأنها، وتراعي ظروفها..

وليهنأ النسويّون وغيرهم بمطالبهم وفكرهم،

وهنيئاً لنا نحن بشريعتنا ودستورنا..!

"وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُه"

(البقرة: 270)

أتدري ما معنى أن الله يعلمه؟

سيتكفّل تعالى بكل شيء..

بنيّتك..

بمالك..

بأجرك في الدنيا..

بدرجاتك في الآخرة..

هو تعالى يعلم قدر حاجتك للمال الذي تبرعت به..

يعلم تماماً لماذا أنفقته..

ويعلم كذلك كيف يجازيك عليه بعدله وكرمه..

ألا يكفينا اليقين بأن الله يعلم..؟

ألا يكفينا لننفق دون خوف أو تردد أو شك؟

اليقين بأنه لا شيء يخفى على الله، ولا شيء يضيع عنده..!

"إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ"

(البقرة: ٢٧١)

لا عذرَ، لا تمنع الصدقة بحجّة أن فلان اليوم يراني!

فإذا لم تتيسّر صدقة السر، فلا تمسك صدقة العلانية!

فالصدقة ممدوحة على كلّ حال، وعلى أي وضع، طالما كانت النيّة سليمة خالصة لله وحده..

صدقة العلانية تحفّز الآخرين على البذل، وصدقة السر أدعى للإخلاص وستر حوائج الناس، وفي كلّ خير..

"ويكفّر عنكم من سيئاتكم"

أعطِ الناس، يُعطِك الله من فضله،

"والله بما تعملون خبير"

الله يعلم نوايانا، أعمالنا، مقدار عطائنا،

فلنعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فالله يعلم!

"يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا"

(آل عمران: ٣٠)

شعور الحسرة، النّدم..

تخيّل أن ترى عملكَ السيء الذي كنتَ تخجلُ منه،

تراه أمامَ الناس أجمعين!

لا شيءَ مخفيّ وراء الأبواب، لا شيءَ مخفي خلف الشاشات،

كلّ شيء..

حتى الكلمة التي سقطَت من أفواهنا في هذا المجلس أو ذاك،

حتى الغفلة التي أوقعتنا يوماً في ذنبٍ نسيناه..

نراه أمام أعيننا.. مسجّلا محفوظا، وما كان ربك نسيّا!

يومها، نودّ لو أن بيننا وبين هذا السواد أمداً بعيدا..

وكأننا نريد الهرب من واقعٍ لا مهرب منه، نريد أن نركض بعيدا كأن هذا العمل لا يخصّنا، كأننا لا نعرفه..!

لكن هيهات، يومَ تشهد علينا أرجلنا وأيدينا وألسنتنا،

هذا ما كنتم تعملون.

"فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"

(آل عمران: 52)

أن تكون من أنصار الله،

أيّ شرفٍ هذا؟

أن تبذل كل ما تملك لنصرةِ دينه..

أن يصطفيك الله لحمل دعوته..

أن يعطيك العلم والقدرة والحكمة والوقت لتعملَ في سبيل الحق..

ديننا لا يحتاج منّا أن ننصره..

والله غني عن كل أعمالنا صغيرها وكبيرها..

لكنه الشرف لنا نحن، أن يختارنا الله من بين خلقه..

"قال الحواريون نحن أنصار الله"

بادر، وقرر من اليوم، أن تكون من أنصار الله،

أن تحظى بهذه المكانة، ولنسأل الله الإعانة والقبول..

"وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"

(آل عمران: ١٣٣)

ليس أيّ مسيرٍ إلى الله، بل سيراً سريعاً.. كم أعمارنا؟

سبعين؟ ثمانين سنة؟ زمنٌ محدود وأمانةٌ ثقيلة..

فسارِعوا!

إلى ماذا؟

لا إلى الجنةِ مباشرة، بل إلى مغفرة الله أولاً!

هي هنا قريبة جداً، لكنّها تحتاج إلى الصدق مع الله بالمسارعة في الطاعة..

فلنرِ الله منّا ما يحب،

ولنشمّر عن سواعدنا.. فالجزاء جنة لا حدود لها، واسعة كما لم نتخيّل أبداً..

كلّ تعبٍ لأجل هذا يهون..

جدّدوا النوايا فلنا ربّ غفور.

"وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا"

(آل عمران: 145)

موعُد انتهاء حياة كلّ منّا، شيءٌ محدد مسبقاً..

حتى قبل أن نولد..

كل شيءٍ ما عدا ذلك هو مجرد أسباب..!

ربما نشعر إذا أصاب أحدنا مرضٌ خطيرٌ وكأن أجله قد اقترب!

والحقيقة أنّه موعدٌ مؤجل مكتوب، وكل ما عدا ذلك هو سبب، إن لم يمت أحدنا به مات بغيره!

فاللهمّ متى ما أتى موعد قبض أرواحنا، فاجعله على طاعة، ورضا وقبول.. اللهم آمين!

"مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ"

(آل عمران: ١٧٩)

نتساءلَ كثيراً لماذا يحدث كلّ هذا؟

ويحدثُ من صديقٍ لا من عدوّ!

وكلّ الإجابات في القرآن،

كلّ الشفاء لنفوسٍ مظلومةٍ مقهورة..

نجده في القرآن..!

من سننِ الله في الكون أن يصفّي صفوف المؤمنين..

ينقّيهم، يميّزهم، حتى يُعرف المنافق من الخائن من المؤمن..

ألم يبتلي الله بني إسرائيل يوم قتالِ جالوت وجنوده؟

ألم يفشل الكثيرون في الاختبار؟

لم يكن ذلك إلا خيراً وبداية انتصار..

لا بدّ للأوراق أن تكشف، حتى نعرف الصديق من العدوّ..

فالحمدلله أولاً وآخراً..

ونسأله تعالى أن يثبتنا في زمن الفتن..

وأن يجعلنا من الطيّب الذي يميّزه تعالى في الابتلاء..

فاللهمّ الثبات الثبات..

"كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْت"

(آل عمران: 185)

ما المخيف في الموت؟ ليس فقط أنه انسلاخ من حياة إلى حياة أخرى،

وليس فقط أنه هادم للذات ولرغد الحياة الدنيا الزائلة الخادعة،

وليس فقط لأن ما بعده إما نعيم أبدي أو جحيم أبدي..

ما يُخيفني في الموت –حقّا- ، أن وقته مجهول!

ماذا لو مات أحدنا هذه اللحظة؟ ماذا لو لم أستطع أن أكمل هذه الجملة؟

ماذا لو أن أحدهم لم يستطع إكمال قراءة هذه الرسالة؟

هكذا يأتي الموت! دائماً غير متوقع! فما مدى استعدادنا للقاء؟

قد يكون الموت أفضل ما يحدث للإنسان..

(غداً نلقى الأحبة، محمدا وصحبه)

لكن هل عملنا لذلك حقا؟ هل عملنا لله حتى صار لقاؤه أسمى أمانينا؟

ومن أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه.

ومن عجائب الموت كذلك، أنه إذا ذكرناه كثيراً، نسعد في الدنيا قبل الآخرة!

كيف سنعامل أهلنا؟ أبناءنا؟ والدينا؟ أصدقاؤنا؟

إن كنا نعلم أننا قد نفارقهم بعد لحظات؟

فما بالنا بتعاملنا مع الله تعالى الذي نوقن أننا ربما نلقاه بعد لحظات؟

لنعمل حتى يكون الموت هو الخاتمة الأجمل، الزائر المنتظر، الرسول الذي يوصلنا لله تعالى، بعد حياة طويلة في طاعته.

"إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً"

(النساء: ١٧)

لا تجعل بينكَ وبين التوبة مسافة بعيدة،

لا تجعل الذنب يتغلغل في نفسكَ وروتين يومك وطبعك وأخلاقك،

لا تؤجل التوبة إلى أن ترى ملك الموت وتشعر بالرّوح تخرج من الجسد في نهاية الحياة..

"من قريب"

كلّما كان أقرب كانت التوبة أرجى،

ولا تدري على أي حالٍ تموت،

وفي أي وقتٍ تموت،

لا تجازف بحياتكَ الأبديّة لأجلِ ذنبٍ قد يمحى في لحظة صدقٍ مع الله..

الآن الآن، جدّد التوبة في هذه اللحظة، فالله غفور رحيم.

"فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"

(النساء: ٦٥)

التسليم لأمر الله، ظاهراً وباطناً..

لا تضيقُ نفوسنا وصدورنا من حكم الله،

من شرائعه، من أوامره، من نواهيه..

"سمعنا وأطعنا"،

لا يكفي فقط أن تسأل عن حكم الله في أمورك حتى تكون مؤمنا،

بل يجب أن تسلّم وتخضع وترضى بما حكم الله به في مسألتك..

هذا الشيء الذي كنت تريده بشدة، لكنه حرام،

فقل: سمعنا وأطعنا..

ذاك الشيء الذي فعلته مراراً وتكرارا ثم ساق لك الله من يخبرك بأنه لا يجوز..

فقل: سمعنا وأطعنا..

لا تقلها على مضض، بل قلها من قلبك، مسلّما بها واثقا!

"إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ"

(النساء: ١٠٤)

في صراعٍ بين الحق والباطل،

قد نتساوى في الألم..

لكننا حتماً لا نتساوى في الرجاء!

قد تتساوى خسائرنا، آلامنا النفسية، آلامنا الجسدية، خوفنا..

لكنّ الباطل ليس له إلا الدنيا، فإن خسرها فقد خسر كل شيء،

والذين على الحقّ يرجون من الله الثواب وجزيل العطاء..

يرجون داراً باقية لا داراً فانية..

يرجون جنة عرضها كعرض السماوات والأرض..

ويرجون تحقق وعد الله لهم بالنصر..

يرجون الله، بعطائه وكرمه وعدله..

ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم!

لا يمكن أن يتساوى الحق والباطل ولو خدعنا الظاهر..

فالحقّ منتصرٌ بالإيمان مهما خدعتنا المظاهر!

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ"

(النساء: 135)

إن الله لينصر الأمة الكافرة العادلة، على الأمة المسلمة الظالمة!

"يا أيها الذين آمنوا"

نداءٌ لي ولك..

"كونوا قوّامين بالقسط"

قوّامين؛ صيغة مبالغة من قائم،

أي ليكن هذا خلقكم وديدنكم، في كل صغيرة وكبيرة!

لسنا مطالبين بالعدل على مستوى دول وحكومات،

لنعدل في بيوتنا، في عملنا، بين دائرة معارفنا،

"ولو على أنفسكم"

العدل مع النفس أن تكون صادقاً مع نفسك، أن لا تبرر، لا تتهرّب، لا تكذب وتخون الأمانة..

أن تصدق الله وتعدل ولو كنت على باطل!

يقول الدكتور محمد النابلسي، أنه لو كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفهمون الإسلام كما نفعل نحن، لما خرج الإسلام من مكة المكرمة!

فبالعدل انتشر الإسلام، وانتصرت الأمة، وازدهرت ووصلت لما كانت عليه..

وبالظلم هُزمنا، وتفرّقنا، وتكالبت علينا الأمة ظلماً وعدوانا..

"وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا"

(النساء: ١٤١)

حقيقة..

أمرٌ لا ريبَ فيه..

إذا كنّا حقّا نؤمن بالقرآن كلاماً لله، لا يجب أن يتسلل اليأسُ يوماً إلى قلوبنا!

قد ننهزم مرّة ومرّتين لحكمة يعلمها سبحانه،

ليمحّص صفوف المؤمنين..

حتى إذا صارت جماعةٌ مؤمنة خالصة لله، فلن يجعل للكافرين عليهم سبيلا!

سيحميهم، وينصرهم، ويثبّتهم، وينزل السكينة عليهم..

سيقيهم مكرَ الكافرين.. سيُلقي الرعب في قلوب أعدائهم..

هو الله..

وعده الحق!

فاللهم عجّل بالنّصر!

"مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ"

(النساء: 143)

مضطربين،

مترددين،

تائهين لا يعرفون لهم سبيلا!

أن تنتمي إلى دين، إلى مبدأ، إلى جماعة..

يعني أن تكون واثقاً قوياً ثابتاً..

لا تحرّكه رياح الأهواء والشبهات يمنةً ويسرة،

لا يتلفّت حوله ينظرُ إلى رأي هذا وذاك..

وتهزّه تعليقات فلانٍ أو شبهةُ آخر..

وتزعزعه اختلافات المبادئ، واختلاف الأزمان..!

فلنستعِذ بالله، من اضطراب المبادئ والقيم والأفكار،

لنستعذ به من التفاتةٍ ما بين هؤلاء وهؤلاء..

فاللهمّ أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه!

"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ"

(المائدة: 2)

لم نُخلق وحدَنا..

ولا نملك القدرة على تصريف شؤوننا دون أدوارنا المتكاملة..

الاختلاط بالناس ليس خياراً، بل أمراً حتمياً لا بد منه، شئنا أم أبينا..!

كيف يجب أن يكون هذا التعاون..؟

على البر والتقوى!

أقحموا أنفسكم في أعمال الخير مع الآخرين..

مدّوا يد المساعدة لكل "بر"، ترتاح إليه الفطرة السليمة..

سواء كان أمر دنيا أو دين..

سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين..

ولكل عمل فيه "تقوى" يزيد رصيدنا في الآخرة..

نخلص فيه قلوبنا لله

لم نُخلق فُرادى..

فلمَ نعمل كذلك؟

" وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ"

(المائدة: ٨)

قد تكرهه، قد تحاربه، قد تتنازع معه..

ومع ذلك، لا تظلمه!

لا تفتري عليه الأكاذيب لتغيظه،

لا تشهد عليه شهادة زور..

لا تقف مع خصمه إن كان عدوّك على حقّ!

عندما تحكم بين الناس، أيًّا كانوا، دع مشاعرك جانباً.

دع خلافاتك جانبا. بل ودع قرابتك جانباً..

لا يوجد عذر للظلم أبداً..

ولو على كافر!

"وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"

(المائدة: ١٤)

لا يحاسبهم فقط،

بل ينبئهم!

يخبرهم قد فعلتم كذا وكذا في يوم كذا وكذا..

يخبرهم أنّكم أيها النصارى حرفتم كتاب الله،

أنكم كفرتم بما جاء به عيسى عليه السلام،

ويخبرنا -نحن- أننا قد عصينا في ذلك اليوم..

ويخبرنا أننا غفلنا عن الصلاة في ذلك الوقت..

وأننا اغتبنا فلاناً في إحدى جمعات الأصدقاء..

أي حسرةٍ وألمٍ وندم قد يشعر بها أحدنا وهو "يُخبر" أمام الملأ عن خطاياه؟

ومن الذي يخبره؟

"الله"

بعزته وعلوّه وجلاله..

فليعمل أحدنا على أن يُنبأ في الآخرة بما يسرّه.

"فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ"

(المائدة: 24)

قد تبدو الكلمة وقحة جداً،

أشدّ وقاحةً مما قد يتصوّر أحدنا..

لكن قد يكون ذلك لأنها جاءت صريحة على نحوٍ لو نعتَده.

اعتدنا أن نُزيّن أعذارَنا ونجامِل أنفسنا،

كم مرّة كان لسان حالنا يقول: "إنا ههنا قاعدون"؟

لخوفٍ، لكسلٍ، لعدم ترتيب أولويات، لأسبابٍ كثيرة أو بدون سبب!

نقعُد ونؤجّل ونستمر في معاصٍ كثيرةٍ رغم علمنا!

قد نكون في حالةِ عنادٍ وإصرارٍ على خطأ..

وأفعالنا تقول بوضوح: "إنا ههنا قاعدون"..

لكننا ما نزال نقرأ الآية.. ونستنكر!

اللهم لا تجعلنا منهم..

"يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا"

(المائدة: ٤١)

الفتوى التي يريدونها،

هي فقط التي يأخذونها!

أما غيرها فلا..

قد لا نقولها بهذه الصراحة،

لكنّ قلوب البعض تقول الكثير من هذا القبيل!

كم فتوى بحثنا عنها من أفواه الشيوخ حتى توافق هوانا؟

كم فتوى اعترضنا عليها وتمنّينا أن نجد أي ثغرةٍ (عذرٍ) حتى نتهرّب منها؟

فاللهم ارزقنا التسليم لك، والرضا بك..

"فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ"

(المائدة: ٤٤)

لا تخلِط المفاهيم، ولا تبدّل القيم، ولا تُميّع الدّين..

لأجل أن يرضى الناس!

لا تتخِذ قراراتك بناءً على معتقدات الناس، لا تخشَ النّقد واللوم والعتاب..

لا تعلّق حياتك وسلوكياتك ومبادئك بما يراه الناس حقّا وصوابا!

"واخشونِ"

الله وحده الذي يستحق أن توزن الأمور بموازينه،

لن يضرّك حساب الناس لك، لكن الذي سيحدد مصيرك، حساب الله لك!

الله وحده الذي ينبغي أن تجعله أمام ناظريكَ في كل خطوة تخطوها في حياتك الدنيا، والناس وراء ذلك كله.. لا يؤخرون ولا يقدّمون!

في زمنٍ صار كلام كثير من الناس دعوة لفساد، أو تحبيطاً لعزائم، ليكن قلبك لا يخشَ إلا من له الأمر كله.. هو وحده.

"كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّه"

(المائدة: 64)

سيُطفِئ الله نارَهم..

المصائِب التي تأتينا من عدوّ أو منافق..

الحروب التي لا تنتهي..

الحقد والغضب،

كلّه سيطفأ!

إنّهم يوقدون الشرّر والله يطفؤه ولو بعد حين..

ستشتعل وتحترق..

لكن وعدَ الله نافذ لا محالة..!

"قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ"

(المائدة: ١٠٠)

مالٌ كثير في مشروعٍ فاسد،

راتبٌ كثير في وظيفةٍ محرّمة،

جمالٌ كثير في زوجةٍ سيئة،

أناقةٌ كثيرة في فستانٍ عارٍ،

جاذبية كثيرة في وصلةِ شعرٍ،

"كثرةُ الخبيث"

الكثرة التي (تُعجب)..

لكنّها لا تستوي مع الطّيب وإن قلّ!

أي مقياس هذا؟

مقياس الله تعالى.. ليس مقياس البشر!

مشروع بسيطٍ فيه بركة..

وظيفة متواضعة ومالٌ حلال مُضاعف..

جمالٌ عاديّ في زوجة صالحة..

تركُ الخبيث من أجلِ الله..

ولله فقط،

ومن ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه**!**

" قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ"

(الأنعام: 14)

لا أن تُسلم فقط، بل أن تكون "الأول"!

لا يدعونا الله تعالى فقط أن (نُسقطَ فرضاً)، أو أن ننجح لمجرّد النجاح..

إنه يأمرنا أن نكون في الصّدارة، في المقدّمة!

المبادرة في الخير،

سابقوا، سارعوا.. ينبغي حين تكون مؤمناً يعني ألا ترضى إلا بالأفضل!

لا تكتفي بما تفعل اليوم،

وليكن عملك في الغد أكثر وأعظم..

لا تكتفي بالفرائض، لا تنتظر أن يأخذ بيدك أحد..

لا تنتظر غيرك ليبادر في مشروع/طاعة/فكرة..

كن أنت (الأول)، الأول في الفكرة، الأول في المبادرة..

أو حتى الأول في نطاق أسرتك وعائلتك..

افعل شيئاً يجعلك عند الله متميّزاً..

كالذي يسعى ليتفوّق في دراسته، لينال درجات في شهادة..

لتكن عندك هذه الدرجات عند الله..

وليكن شعارنا: "لن يسبقني إلى الله أحد".

"انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ"

(الأنعام: 24)

كانوا على باطِل،

ويعلمون أنّهم على باطِل،

ولكنّهم "كذبوا"!

ولم يكُن كذبهم إلا على أنفسهم!

يخلقون لأنفسهم وللناس أعذاراً،

ويجعلون فعلهم "منطقاً"..

ويعلمون في قرارة أنفسهم أنّهم يكذبون!

فاللهمّ نسألكَ صدقاً مع أنفسنا، ومعك.

"وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا"

(الأنعام: 29)

كم ورقة تسقط في أي ثانية على أي من بقاع أرض الله الواسعة؟

كلّها، كلّها، يعلمها الله تعالى..!

يعلم متى ستسقط قبل أن تسقط، يعلم بها عند سقوطها، يعلم مكانها بعد سقوطها، يعلم مصيرها ومستقرها!

سبحانه، إذا كان هذا للورقة التي لا يلقي لها أحدنا بالا..

فما بالنا بخطراتنا وأفكارنا، فما بالنا بأعمالنا وأقوالنا..

بل وما بالنا بدموعنا وألمنا وحزننا!

هو وحده يعلم هذا كله، دقه وجلّه..!

اليقين التام بأنه تعالى يرى ويسمع..

سيجعل حياتنا حتماً أفضل..

ويجعل قلوبنا له أقرب وأسعد..

"وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْو"

(الأنعام: 32)

لعبٌ ولهو.. هيَ هذا فقط..!

عملٌ عابث، بلا هدف، سينتهي ويزول..

هذه هي الدّنيا..

نموتُ جميعاً وتنتهي الدّنيا بكلّ ما فيها.. إلا ما كان للآخرة الباقية..!

الدّنيا بكل ما نراه فيها الآن، مبانٍ عالية، وتكنولوجيا متطورة، جامعات وشهادات، أموالٌ ورحلات سفرٍ ورفاهية..

الدّنيا بمصاعبها، الفقر والجوع والحروب والقتل والتهجير..

الدنيا بملذّاتها، الأكل والنّوم والمال والطبيعة..

الدّنيا بكلّ شيء نعيشه وسنعيشه وما نرى الآخرين يعايشونه كذلك..

كل ذلك..

وربما أكثر!

هو بوصف القرآن..

"لعبٌ ولهو"

فلنتذكّر كلّ حينٍ أن لا نتعلق ببعض اللعب،

وأن نعمل لما هو خيرٌ وأبقى!

"قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ"

(الأنعام: 33)

كلامُ البشَر جارح، من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون،

وإن كنتَ على حقّ فستسمعُ -حتماً- باطلاً كثيراً، اتهامات، سخرية، كلامٌ "مُحزن" ربما..

"قَد نعلم"!

كلّ هذا يعلمه الله، ليس فقط ما نلقاه من الناس،

بل ما نشعر به كذلك!

يعلمه تماما!

قد نشتكي الضيق للبشر فلا يفهمون،

لكن ربّ البشر يعلم، حتى من دون أن تكثر الشروح..

"فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"

لا يعلم وفقط، بل يربت على القلب الحزين، ويواسيه بأعظم الكلام.. سبحانك برحمتكَ ولطفك، ارحم حالنا، والطف بنا .

"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ"

(الأنعام: 44)

أحياناً تأتينا النعمُ "فجأة"

نرزق بأموال، وأولاد، وربما بعض الرفاهية،

حولنا أناسٌ كثيرون، انشغالاتٌ في ملذاتِ الدنيا..

ننسى!

نظنّ أننا حزنا السعادة، لم يعد ينقصنا شيء،

والكلمة التي تقال دائماً في وجه النعم: "الله يحبني"!

تأتي هذه الآية لتحطّم هذه الأفكار..

ليس هذا العطاء هو مقياس الحب عند الله!

انظروا إلى عطاء الآخرة، فما أوتينا من شيءٍ إلا متاع الحياة الدنيا..

"أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم"

(الأنعام: 54)

"بجهالة"

بلحظة ضعف وغفلة، لا عن عمدٍ وتخطيط..!

في لحظات ظننا أن للذنب لذة، أو أنه سيوصل إلى نتيجة مرضية.. لنفوسنا الضعيفة.. لغفلتنا المتراكمة..

ظننا -عن جهل- أن ذنباً صغيراً لن يضر، أن راحتنا اللحظية هذه هي راحة أبدية..

ظنّنا وظننّا -عن جهالة-!

لكن الحقيقة التي تتجلى بعد ذلك..

"من عمل منكم سوءا"

هذا الذنب هو سوء في الدنيا والآخرة، هو همّ وغم، هو تعاسة في الدنيا وجزاء في الآخرة!

"ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم"

التوبة وإصلاح الخطأ.. العودة إلى رحاب اللطيف الخبير.. الغفور الرحيم..

النهاية السعيدة لكلّ همومنا الثقيلة..

لكل ذنوبنا العظيمة..

لأرواحنا المنهكة..

العودة إلى الله.

"قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ"

(الأنعام: 64)

من كلّ كرب،

كم مصيبة مرّت علينا في حياتنا؟

كم مشكلة؟ صغيرة كانت أم كبيرة..

كم لحظة ضيقٍ وحزنٍ أبكتنا في أيامٍ قد خلت؟

أين هذا كلّه الآن؟

خرجنا من معظمه وكأنه لم يكن!

نجّانا الله بفضله ورحمته..

ثمّ ماذا؟

"ثم أنتم تشركون"

نغفل وننسى!

قد لا نشرك بالله بعبادةِ أصنامٍ وشجر وبقر،

ولكننا قد نتعلّق بغير الله، نرجو من غيره، نخشى غيره..

وهو الذي ينجينا منها ومن كل كرب!

فسبحان الله عما يشركون..

"وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِه"

(الأنعام: 68)

لا ينبغِي أن نجادل في كلّ وقت،

هناك أمور السكوتُ والإعراض عنها هو التصرّف الأمثل..!

"حتى يخوضوا في حديثٍ غيره"

العلّة في الحديث لا في الأشخاص!

العدل حتى في الحكم على الأشياء، في حسن التصرف في الموقف، في علاقاتنا مع الناس!

نعاشرهم بالمعروف ما دام حديثهم السيء لا يطرق أسماعنا في كلّ حين.

"ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا"

(الأنعام: 70)

دعهم!

أولئك الذين عبدوا الدنيا فصارت لهم ديناً..

أولئك الذين تاهَ هدفهم في الحياة وغرّتهم حتى ظنوا أنها الغاية..

أولئك الذين تعلّقوا بها تعلّق من ظنّ أنه سيخلد فيها..

أولئك الذين قضوا حياتهم باللهو واللعب!

وكلّ شيء لم يكن لله ولدينه ولجنّته، فهو لا يتعدى كونه لعباً ولهواً!

راقبوا من تخالطون، وتصادقون، وتحبون وتقدّرون،

عسى أن يرزقنا الله في هذه الحياة الدنيا، حبّا في الله ولله، خالداً أبداً إلى يوم نلقاه!

"الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ"

(الأنعام: 82)

في زمنِ الخوف والحرب،

قد نظنّ الأمن بيتٌ في بلدٍ بعيدٍ عن الطائرات الحربية والقنابل والأسلحة..

"أولئك لهم الأمن"

من أولئك؟ ليسوا أصحابَ الحصون!

بل من أمنَت نفوسهم، واهتدت قلوبهم، وآمنوا وسلِموا من الخوف إلا من الله!

ففي أشدّ الظروف خوفاً، قلوب المؤمنين ساكنة، هادئة، آمنة..

حتى أمن الجنّة الأبديّ، بقربِ الله المؤمن السلام ..

"وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"

(الأنعام: 87)

"اجتبيناهم"

من بينِ ملايين البشر على هذا الكوكب..

من بين كلّ الفتن..

كلّ الجهل..

كلّ البيئات الفاسدة..!

اختارَ لنا الله أمًّا وأباً مسلمين..

اختار لنا بيئةً مؤمنة..

اختار لنا قلباً خاشعاً..

اختارنا -نحن- من بين كلّ البشر..

كان يُمكن أن نكون تلكَ الفتاة المتبرجة في إحدى دول أوروبا..

أو ذاكَ المخمور في شوارع أمريكا..

أو إحدى عابدي البقر في آسيا..!

كان يُمكن..

لولا اختيار الله!

يا رب اجعلنا ممن اصطفيتهم لجنّتك.

" قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ"

(الأنعام: 164)

الله الذي يربّي، يمدّنا بحاجتنا من الدّنيا والآخرة،

يدبّر أمورنا بدقّها وجلّها، يتولانا ويهدينا وإذا أخطأنا يغفر لنا..

ومن يعرِف الله "الربّ" حقّ المعرفة، ويستشعِر وجوده وقربه وتدبيره وحكمته في كلّ أمور حياته،

أيبغي غيره؟

لا والله!

"وهو ربّ كل شيء"

"أبغي رباً"

نبحث عن من يداوي جراحنا، عن من يسهّل أمورنا،

نعتمد على عبادٍ لله ضعفاء، نتّكل عليهم كثيراً..

والله ربّنا، ومعطينا ومدبّر أمورنا!

فاللهم لا تعلّق قلوبنا بغيرك.

"قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ"

(الأعراف: 12)

المعصية التي أخرجَت إبليس من الجنّة،

المعصية التي خلقَت العداوة بيننا إلى يوم الدين..

المعصية التي استوجبت لعنة الله وغضبه عليه إلى أبد الآبدين..

كم مرةٍ نقول -ولو بيننا وبين أنفسنا-، أننا خيرٌ منه؟

خيرٌ من صاحب الجنسية الفلانية، خيرٌ من صاحب المهنة الفلانية، أو هذه القبيلة أو تلك..

نظنّ أننا نتفوّق على الآخرين بسبب ماديّات تافهة،

رغم أننا نستنكر قول إبليس كلما قرأنا القرآن،

لكننا لا نرى في قولنا هذا شيئاً ذا شأن!

"وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ"

(الأعراف: 44)

يوم النتائج،

عندما يلتفت كلّ أحدٍ إلى صاحبه، ينظر ما جزاؤه..

ويأخذُ كلّ ما يستحقه..

ويسلّم كل أحدٍ بمصيره، ويرى الوعد والوعيد يتحقق أمام ناظريه..

حينها يعلم علم اليقين بأنّه لا عودة للوراء.. لا رجوع!

الحوار يومها بحدّ ذاته مؤلم..

ذاك المؤمن الذي قد يكون سمع من الآخرين سخرية كثيرة،

قد يكونوا ضحكوا عليه مرة بعد مرة..

ها هو اليوم في موضع القوّة،

وغيره في أشدّ حالات الندم..

فاليقين اليقين بأن يوماً كهذا سيأتي لا محالة،

وأن هذا الحوار لا بدّ قائم،

ففي أي الفريقين نحن؟

" وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَى"

(الأنفال: ١٧)

"إذ رميت"، فالفعل قائم..

أنت فعليًّا حرّكت يديك وقمت بالأمر،

ويراك الناس وأنت تفعل ذلك..

لكن من وراء هذا؟ الله!

"ولكن الله رمى" !

ليش مجازاً! بل هو الذي سمحَ لك أن ترمي!

هو الذي سمح لك أن تكلّم الشخص الفلاني ليسهّل أمرك في شأنٍ معين..

هو الذي سمح لصديق لك أن يساعدك،

هو الذي سمح لك أن تمسك طفلك قبل أن يتأذى،

هو الذي سمح لك أن تقف قبل أن تصدمك سيارة مسرعة،

هو الذي سمح لك أن تدرس للامتحان كما ينبغي،

وسمح للامتحان بأن يكون سهلاً،

وسمح لك أن تنجح!

هو الذي سمح لك أن تتخطى كل عقبات حياتك منذ ولادتك إلى اليوم..

فلا تنسَ أن تنسب الأفعال إلى فاعلها، وتنسب الفضل إلى صاحب كل فضل،

ولا تغترّ بعلمك ولا عملك ولا علاقاتك ولا ذكائك، ولا لأي شيء تملكه أو لا تملكه..

فكلّ ذلك في ملك الله تعالى وحده.. ملكه فقط.

" وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا"

(الأنفال: 42)

أمرنا أن نعمل بالأسباب،

ولكن مع ذلك، علينا أن نؤمن أن الله وحده هو مسبب هذه الأسباب،

وإذا أراد –تعالى- أن يقضي أمراً آخر،

فلا رادّ لأمره!

كثيراً ما نخطط ونعقد اتفاقات، ونقرّر أموراً ونعمل جاهدين من أجلها..

لكن إذا أراد الله أن يكتب أمراً آخر، فهي حكمته تعالى وعلمه،

ليقضيَ الله أمراً كان مفعولا..

لله حكم كثيرة قد تخفى علينا..

وقد تنكشف لنا بعضاً منها بعد حين..

وقد لا تنكشف!

لكن إيماننا بأنه أعلم بنا من أنفسنا، يجعلنا نوقن تماما، أن أمر المؤمن كله خير!

فلله الحمد من قبلُ ومن بعد..

" انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا"

(التوبة: 41)

المشغول ينتظر الفراغ،

المريض ينتظر الصحة،

الفقير ينتظر الغنى،

لا تنتظر، "انفِروا" !

أيّا كان وضعكم، أياً كانت ظروفكم،

لا تنتظر أن تكون أمورك مثالية لتقوم بأمرٍ ما،

فالوقت المناسب لن يأتي أبداً،

برغم كلّ شيء، توكل على الله وقم،

فإن لم تبدأ الآن، فلن تبدأ أبداً!

"أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"

(التوبة: ١٠٤)

"هو"!

لا أحدَ غيره، "هو" فقط!

الذي يقبل التوبة، وهل بعدَ هذا نقلّب أمر التوبة في رؤوسنا ذات اليمين وذات الشمال؟

هل بعد هذا نفكّر مرتين قبل أن نتوب؟

هل بعد هذا نيأس من القبول؟

إذا كان "الله" هو الذي يقبل توبتنا المشوبة بظلمٍ كثير،

فلن نعدمَ خيراً!

"ويأخذ الصدقات"

تضعها في يد المحتاج، ولكن الله هو الذي يأخذها!

الله الغني عنّي وعنك وعن العالمين، يأخذ منكَ دريهمات قليلة،

ليرحمك بها!

فيا رب، برحمتك التي وسعت كل شيء، اقبلنا وارحمنا!

"وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ"

(يونس: 107)

عندما تضيقُ بنا الدّنيا،

نُفكّر -عفويّا- بأقرب الأشخاص إلى قلوبنا؛

نفكّر بأكثر الأشخاص قدرةً على إخراجنا من محنتنا،

مختصّ، صاحب منصب، قريب، صديق..

ولا بأس في هذا؛

لكنّ الحقيقة، هي أنّ جميع البشر، قويّهم وضعيفهم،

قريبهم وبعيدهم، ما هم إلا أسباب يضعها الله بين يديّ عبده إذا أراد كشف ضرّه!

يستجيب الله دعاءنا بتسيير أشخاصٍ وتسخيرهم لأمورنا نحن، بضعفنا وتقصيرنا وغفلتنا!

أيّ رحمة هذه؟

" اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ"

(يوسف: 9)

"وتكونوا من بعده قوماً صالحين"!

نعمل الذنب –ولا بأس- فسنتوب (بعده) ونكون قوماً صالحين!

لسان حال كثيرٌ من البشر..

سنعصي والله غفور رحيم، متى ما أتيناه يقبلنا..

سبحان الله، أنخدع الله وهو عليم بما في صدورنا؟

"من عمل منكم سوءا بجهالة"

بجهالة..

سهواً، ضعفاً، جهلاً..

لا قصداً وتدبيرا وتخطيطا..

"ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"

عار على أحدنا أن يعامل الله بالخداع والمكر،

فهو –جل شأنه- خير الماكرين، وهو العليم الخبير..

أذل الله أخوة يوسف وأعز يوسف..

لأنه تعالى لا يظلم أحداً..

ولم ينفعهم تدبيرهم ولا توبتهم –المتأخرة والمخطط لها-!

اللهم لا تجعلنا منهم..

وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

"وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ"

(الرعد:25)

"ما أمَرَ اللهُ بهِ أن يوصَل"

ما هو؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله))!

قطعه الله؟ أيّ شيءٍ عظيمٍ هذا؟

وأيّ وعيدٍ نوعدُ به لأمرٍ يبدو صغيراً لهذه الدرجة؟

كم قطيعةٍ حدثت لأجل خلافٍ بسيط،

لمجرد سوء فهم أحياناً..

أو لشيءٍ كبير..

هل -حقاً- يهم؟

وهل شيءٌ -مهما كبر- يستحقّ قطيعة الله تعالى لعبدٍ ذليلٍ ضعيف؟

وإذا قطع الله عبده، كيف يكون حاله من بعده؟

الأمر لا يستحقّ كثيرٌ من كلام.. الأمر أعظم من ذلك حتماً!

هل تنازلٌ بسيط ربما عن (كرامة) أحدنا حتى يصلح ما بينه وبين رحمه، يبدو صعباً مقابل وصل الله له؟

وهل دنيا كهذه تستحقّ أن نحقد ونكره وندمن المشاكل والخلافات؟ ثمّ نسير في حياةٍ بحبلٍ مقطوعٍ عن الله؟

لا شكّ أنها لا تستحق.. !

"وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ"

(الحجر: ٨٢)

كم واحدٍ منّا يخشى أن يصيبه عذابٌ من الله في أيّة لحظة؟

ونحن نائمون؟ ونحن في أعمالنا؟ ونحن مع أهلنا؟

في أي وقتٍ.. وفجأة!

قد لا يخطر ببالنا أبداً..

وهل نظنّ أن هذه الأقوام السابقة كانت تنتظر العذاب؟

أو كانت تترصّده يوماً بعد يوم؟

كانوا "ينحتون من الجبال بيوتاً"

في أوج قوتهم، وتطورهم، "وأمنهم"!

يبنون للمستقبل، يعمرون دنياهم..

وما أشبههم بأقوام اليوم، يتطاولون في البنيان،

يتنافسون في الأموال،

يتطورون في الصناعات..

"آمنين" !

لا يتوقعون أن تنهار كلّ هذه الآمال في غمضة عين..

لا يتوقعونها أبداً!

ولكن..

أليسَ ربّك بقادر؟

"إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِر"

(الإسراء: 30)

بمشيئته فقط،

يُعطي أحدهم مالاً،

ويعطي أحدهم وقتاً،

ويعطي الآخر علماً،

ويمنحُ آخر موهبةً،

ويرزقُ آخرين أولاداً،

بعلمه، وحكمته،

يُعطي من أرزاق الدنيا ويحرم،

ويعطي من نعيم الآخرة ويحرم،

فلنسلّم ونرضى بما قسم الله لنا،

فلله في كلّ تقدير حكمة،

لم يعطك مالاً ويحرمك الأولاد إلا لحكمة،

لم يعطك علماً ويحرمك المال إلا لحكمة،

قد لا نعلمها اليوم، أو غداً، لكنّ اليقين يكفي،

لكي نعيش برضا وسلام

فلله الحمد على ما قضى، وما قسم، وما أنعم.

"وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا"

(الإسراء: ٨٦)

لا تأمَن النعم التي لديك الآن من الذهاب -فجأة- !

فالله تعالى يقول لأحبّ الخلق إليه، متحدثاً عن أعظم النعم للبشرية جمعاء، "ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك"!

الله قادر على أن يزيل بمشيئته أيّ نعمةٍ قد تظنّ أنّك ملكتها للأبد..

قد تنسى أنها ليست بيدك..

قد تنسى أن الذي يحفظها لك ليل نهار في قيامك وقعودك ونومك ويقظتك هو الله.. والله فقط.

قد تنسى أن صلاتك التي تصليها كلّ يوم، هي بتوفيق الله فقط، وقد تُنزع!

قد تنسى أن أولادك في رعاية الله وإن كنت أنت تسهر على راحتهم..!

قد تنسى أن أموالك ودائع عند الله لا تحفظها البنوك والخزائن!

قد تنسى أن قلبك لا ينبض نبضة إلا بإذن الله!

كل النعم بين يدي الله يقلبها كيف يشاء..

فاستودع الله حياتك، ومن تحب.

فعنده لا تضيعُ الودائع..

واحتسب الفقد فإنما هو ابتلاء، ولم يأخذ منك شيئاً إلا هو يملكه سبحانه، فلا اعتراض لحكمه فيما يملك.

" وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا"

(طه: 115)

هذا آدم، ينسى!

كلّنا قد ننسى أحياناً ونغفل.. لا يظنّ أحدنا أن مجرد وضع أقدامه على طريق الحقّ هو نهاية المسار،

ولا يظنّ أنها قد تظل ثابتةً على هذا الطريق أبداً..

ستزلّ، وستخطئ، وستنسى كثيراً كثيراً..

مرةً بعد مرة..

لهذا نمسكُ بيدِ أحدهم عن يميننا، وعن شمالنا،

لهذا لا نزال نقرأ القرآن أبداً،

لهذا لا نزال في حاجةٍ إلى وعظٍ كثير، ونصحٍ كثير،

ومحاسبة لا تنتهي..

" وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ "

(الأنبياء: 105)

سنّة الله، في أرضِ الله..

الأمرُ لا يحتاجُ إلى تحليلاتٍ سياسيّة،

ولا معطيات اقتصادية واجتماعية،

ولا نظراً إلى مدى التطوّرات التكنولوجية،

لا يحتاج لهذا كلّه،

إنه يحتاج إلى يقين.. بأنّ وعدَ الله حقّ!

حقيقة لا جدالَ فيها، والسّبب جليّ واضح..

"عباديَ الصالحون"

صلاح العباد يورثُ الأرض.

فسادهم يسلب هذا العطاء..

ألا يُمكن -إذن- أن يكون النّصر قد تأخر.. بسبب ذنبك أنت؟

" لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ"

(النور: ١٢)

لماذا تصبح أسرع القصص تصديقاً (ونشراً) هي قصص الفضائح؟

ماذا نحتاج سوى الهدي القرآني في موقف كهذا؟ وبهذا الوضوح؟

في اللحظة التي تقرأ فيها رسالة "برودكاست" عن فضيحة، أو تغريدة في تويتر،

أو غيبةٍ في مجلس، أو أيًّا كانت الوسيلة..

ماذا تفعل؟ "ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا"

الظن الحسن.. مهما دلّتك القرائن على ضد هذا،

لقد رأى المسلمون يومها عائشة رضي الله عنها بصحبة "رجل"!

لو صارت هذه الحادثة في زماننا هذا لانتشرت الصور والقصص والروايات وتفاصيلُ التفاصيل المكذوبة عن حادثة كهذه!

وكثيراً ما نقول إن الصورة هي خير دليل.. ولكن ليس بالضرورة!

ففي أي موقف كان تستطيع أن تحسن الظن، أن تلتمس أعذاراً كثيرة جداً.. لو أردت ذلك حقاً!

ثم ماذا؟ "وقالوا هذا إفكٌ مبين"

لا يكفي أن تحسن الظنّ في نفسك فقط، بل قلها.. "هذا إفك مبين"

هذا كذب وافتراء.. كن مدافعاً عن أعراض الناس.. لا تسكت عن الحق!

لا تدري كم يكون صاحب الشأن في حاجة لصوتٍ كصوتك..

كم كانت تعني كلمات الصحابة وهي تقول للرسول عليه الصلاة والسلام أنهم ما عرفوا عن عائشة رضي الله عنها إلا خيرا؟ كم كانت تعني له هذه الكلمة حينها؟

كن أنت صاحب هذه الكلمة التي تميت الشائعات.. وتبيّن الحق!

"رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا"

(الفرقان: 74)

قُرّة العين،

زوج/زوجة صالحين، وذريّة طيبة..

راحة القلب وراحة البال في أسرة كهذه..

لا تنظر العين لسواهم مأوىً واحتواءً..

"قُرّة"

استقرار وسلام واطمئنان..

إذا أردت أن تطلب شيئاً في الدنيا..

فاطلب هذه!

البيت الذي يعيننا على أمر الدين والدنيا..

البيت الذي لا تملأه المعاصي، وكثرة المشاكل، وحقد القلوب..

البيت الذي بُني على حب الله، الذرية التي تربّت على ذلك..

فاللهمّ لا تحرِم أحدنا قرّة عينه..

واجعلنا للمتقين إماما.

" لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ "

(الشعراء: 3)

ما هذه الرحمة؟ ما هذا الحرص؟

أن يُهلك –عليه الصلاة والسلام- نفسه من شدة حرصه وخوفه على قومه أن يموتوا على الكفر!

فلننظر أين نحن من هذا؟

هل نرضى أن نسعد بالطاعة في قوم أشقياء؟

هل نرضى أن نتسامر مع صديق لدُنيا، ثم نتركه في ظلمات الذنوب؟

هل ننام قريري العين مرتاحين وأهلنا بعيدون عن الله؟

ماذا فعلنا للآخرين؟

أن نرضى بأن نكون على هداية ومن حولنا يشقون في الدنيا قبل الآخرة، هذا بعيد عن أخلاق حبيبنا ، بعيدٌ عن الرّحمة بخلق الله، بعيدٌ عن كينونتنا كمسلمين..

(اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)

"وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا"

(القصص: ١٠)

هناك مشاعر صعبة جدا لدرجة أنك لا يمكن أن تضعها في كلمات..

ولا يمكن للآخرين أن يفهموها كما هي تماماً..

وقد تظنّ أحياناً أن ما تراه أنت مصيبة عظيمة قد يراه غيرك أمراً أقل سوءاً..

هذه الآية تخبرك أنه رغم كل ذلك..

"الله" يعلم مشاعر عباده تماماً كما هي، دون مبالغات الشعراء، ودون إجحافٍ لعظمِ الألم..

لا زيادة ولا نقصان.. يعلم كيف تشعر في أي لحظة..

يعلم أن هذه الكلمة جرحتك، آذتك كثيراً.. يعلم أن الفقد يؤلمك..

"وأصبح فؤاد أم موسى فارغا"

فارغا!

ابحث في المعاجم كلها عن لفظٍ أقرب من هذا لوصف مشاعر أم فقدت طفلها إلى المجهول..

لا يوجد!

يأخذ الطفل قلب أمّه كلّه.. وفي لحظة يختفي عن ناظريها.. فيظل قلبها خاوياً لا يملؤه شيء..

لا تخشَ شيئاً إذا كان الله يعلم دقائق مشاعرك..

لا تخشَ ظلماً ولا جرحاً ولا همًّا ولا غمًّا..

توجّه إليه بهمومك، فهو يعلم..!

وهو وحده القادر على أن يمحو الألم كأنه لم يكن..

كما ردّ موسى إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن!

" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا "

(الروم: 30)

فأقم وجهك،

أقبل على الله بكلّ ما فيك، استنفذ كلّ طاقتك من أجله،

انصرِف إليه بالكليّة!

أن تقيمَ وجهك لله، أي أن تركّز جهدك ووقتك واهتمامك وحياتك كلّها له وحده!

فطرة الله،

أن تفعل ذلك، يعني أن توافق فطرتك،

أن تعيد لروحك توازنها وسلامها الداخلي،

فالله الذي خلقك وركبك، هو الذي صمّم هذا الدين خصيصاً لك، لفكرك ونفسيّتك وبنيتك وعلاقاتك الاجتماعية..

أن تقيم وجهك لله يعني أن تعود إلى نفسك وفطرتك وطبيعتك، أن تعيش مرتاح النفس والضمير.. أن تكون (أنت) كما أراد الله أن تكون!

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا "

(الأحزاب: 9)

تأتينا "جنود" المصائب والمشاق والصعوبات كثيراً في حياتنا..

فيرسل الله عليهم "ريحاً وجنوداً لم تروها"

وينتهي الأمر فجأة.. وكأنه لم يكن..

ثم ننسى..

لهذا يقول تعالى: "اذكروا نعمة الله عليكم"..

لنتذكّر (خندقاً) واحداً أسرَنا يوماً وأرهقنا..

فجاءت جنود الله فأنقذتنا..

فلنذكر نعمة الله..

ونحمده ونشكره حقّ الشكر.

" إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ"

(الأحزاب: 10)

الآيات التي تصف "المشاعر" وصفاً دقيقاً..

تأسرني!

كثيراً ما نعجز عن وصف مشاعرنا..

لكن عندما يصفها الله تعالى.. هذا أدق ما يُمكن!

كيف يفهمنا الله تعالى عندما لا يفهمنا أحد..

"زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر"

الخوف، الرعب، القلق.. والكل متربص بالمؤمنين..

والله من فوق سبع سماوات يعلم ذلك كله!

"إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم"

الأعداء من الشرق والغرب، الأمم كلها متكالبة علينا..

ونحن ننتظر المصير المجهول..

لكن..

"وما زادهم إلا إيماناً وتسليما"

في كل هذه الظروف.. وكل هذا الخوف والترقب..

المؤمن بحق؛ هو الذي يزداد إيمانا بوعد الله، ونصره وفتحه..

فاللهم نصراً قريبا تشفِ به صدور قومٍ مؤمنين..

" لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا "

(الأحزاب: 21)

نجيبُ منذ الصّغر على سؤال: (من قدوتك؟) إجابة محفوظة بديهية.. (رسول الله عليه الصلاة والسلام)!

لكن ما صحة هذه الإجابة؟

أن يكون أحدهم قدوة يعني أن يتمثّل أمام ناظريك في كلّ شيء تعمله، أن يتبادر إلى ذهنك دون شعور سؤال: "ماذا كان سيفعل في هذا الموقف؟"

كيف نصل لهذا؟

"لمن كان يرجو الله واليوم الآخر"

أن نعيش على هذا، نتذكره كل حين، كل وقت.

"وذكر الله كثيرا"

لا أن تذكر الله فقط، بل تذكره كثيرا!

"وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا"

(الأحزاب: 22)

متى؟

"ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب"

في وقتٍ عسِر، شديدٌ جداً، صعب لأبعد الحدود..

في لحظة الخوف، الذعر، الضعف..

زاد إيمانهم!

اليقين بوعد الله يجعل أمور الدنيا كلّها تافهة.. بسيطة؛

يجعل قلب المؤمن صامِداً كالجبل، مسلّماً بقدر الله وحكمته..

مستسلماً لأمرِ الله ثابتاً لا يتزعزع..

فاللهم إيماناً كإيمانهم.

" اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا "

(سبأ: 13)

هل أعظمُ من النعم التي أنعم الله بها على آل داوود؟

دينٌ وتقوى ومُلكٌ عظيم، وتسخيرٌ للكون!

ثمّ ما المقابل؟

اعملوا شكرا!

لم يطلب منهم تعالى أن يحمدوه قولاً..

بل "اعملوا"!

هل ظننّا أن قولنا "الحمدلله" بعد تذكّر عابر لإحدى نعم الله -التي لا تعدّ ولا تحصى- تكفي؟

ثمّ نسيرُ في الحياة غافلين لاهين!

ما نحن مطالبين به في الحقيقة شيءٌ أبعد من هذا،

لذا قال تعالى بعدها "وقليلٌ من عباديَ الشّكور"

لماذا قليل؟

لأن المقصود ليس أولئك الذين يرددون "الحمدلله" مرة أو مرتين أو حتى ألفاً.. ثم انتهى الأمر!

إنما المقصود من كان حالهم حال شكرٍ في قولهم وعملهم.

"اعملوا آل داوود شكرا"!

نشكر الله بالعمل بنعمته، التقرب إليه بنعمته، الدعوة إليه بنعمته، أن نعيش لله فقط.. وذلك أيضاً بنعمته!

فالحمدلله قولاً، والحمدلله فعلاً، والحمدلله كما ينبغي وكيف ينبغي.

" فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ "

(سبأ: 19)

لسان حالهم رفضَ النّعمة، وطلب العقوبة!

كم مرّة عصينا الله وكأنّنا نقول "ربّنا باعِد بين أسفارنا"؟

كم مرة "ظلمنا أنفسنا" بجحدنا لنعمةِ الله وفضله؟

كم مرة عصينا الله بنعمه، ونحن نعلم؟!

وكأننا نطلب من الله أن يعجّل علينا بالعقوبة..!

وحصل لهم ما أرادوا.. فجعلهم تعالى "أحاديث"!

قصّة من القصص التي يتداولها الناس فيما بينهم..

إحدى "سوالف" المجلس.. فلان حصل له كذا وكذا..!

فلان ساءت خاتمته، فلان خسر تجارته، فلان ضاقت عليه حياته..

فاللهم لا تجعلنا عبرة لأحد!

" يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِين"

(سبأ: 31)

طبعُ البشرِ إلى يومِ القيامة!

الهرب من المسؤولية، الهرب من أخطائنا وإلقاء اللوم على الآخرين..

على الظروف.. على الحياة.. على الناس..

كلّ شيء؛ وأي شيء.. سوانا!

" لولا أنتم"!

سيناريو كلّ تجربة فاشلة..

وكأنّنا نخفف عن أنفسنا ثقل الخطأ..

نزيحه عن كاهلنا ونلقيه على كاهل أحدٍ/شيءٍ آخر..

نحمّله بعض المسؤولية.. عن أخطائنا نحن!

لكن الله يقول؛

"وهديناه النجدين"

وأنت أنت فقط من يختار.. لا شياطين الإنس ولا شياطين الجنّ، ولا صديق ولا عدو، ولا قريب ولا بعيد..

أنت فقط، ولا أحد غيرك..!

وفي يومٍ ما سنحاسب عن كلّ شيء، مهما دقّ وصغر،

وفي هذا اليوم بالذات، سيلقي البعض بكثيرٍ من اللوم،

لكنّ الوقت قد فات..

ولن ينفعهم يومئذ أنهم في العذاب مشتركون!

" وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ"

(سبأ: 35)

أنظنّ أنّنا إن أوتينا الأموال والأولاد والوظيفة والشهادة..

أننا من أحبّاء الله وأولياءه؟

ألا ساء ما يحكمون!

لو كانت أرزاق الدنيا دليلاً على حب الله لعباده..

لما أوتيَ قارون الكنوز والأموال!

لما أوتيَ فرعون المُلك والسّلطة!

ولما رأينا كافراً غنيّا منعمّا..

الدنيا دار ابتلاء، بخيرها وشرّها..

فلا يغترّ أحدنا بعطاء الله الدنيويّ..

فالآخرة خيرٌ وأبقى!

"وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"

(سبأ: 39)

سيعطينا الله من فضله..

علماً..

وصبراً..

ووقتاً..

وراحة بال..!

الرّزق ليسَ رزقَ الجيوبِ فحسب..

فاسألوا الله من فضله ما تحبّون..

عسى أن نُرزق من حيثُ لا نحتسب!

"فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ"

(الصافات: ١٤٣)

عرف الله في الرخاء، فعرفه في الشدة!

لا تنتظر مصيبةً حتى تعود إلى الله..

لا تنتظر همّا حتى تدعوه..

لا تنتظر حيرةً حتى تصلي إليه..

لا تنتظر حاجة حتى تذكره!

لأن يونس كان من "المسبحين"..

استجاب له الله وهو في ظلمات البحر والحوت والليل..!

ونجّاه بدعاءه..

"لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" !

" وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ"

(ص: 21)

"الخصم" اللذان ينتظران حكم سيدنا داوود –عليه السلام- فيهم..

"المحراب" مكان العبادة والخلوة مع الله تعالى..

التوازن بين التعبّد لله، والعمل الصالح مع خلقه!

لا ينبغي أن يعتزل المؤمن ويتقوقع على ذاته بحجّة الخلوّ بربه والتعبد له..

ولا ينبغي أن يسعى في حاجة الخلق حتى ينسى نصيب نفسه من الذّكر والعبادة..

التوازن!

دائماً يقرن الله تعالى الإيمان بالعمل الصالح،

وبين العبادات والأخلاق، وبين العمل للخالق والعمل للخلق!

وهنا يُذكّر الله تعالى سيدنا داوود أنه لم يخلق فقط للعبادة!

"يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبّع الهوى"

"يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ"

(الزمر: ٦)

عندما كنّا غائبين عن أبصار العالمين، حتى أمهاتنا!

عندما كنّا -لا شيء-،

عندما كنّا أصغر من أن يقوم على رعايتنا أحد من البشر..

كان الله يحفظنا!

يطوّر أعضائنا،

يشكل أجسادنا،

يخلقنا خلقاً من بعد خلق،

وحدنا في الظلمة..

كان يرعانا ويغذّينا..

أفلا يكون قادراً - سبحانه- على همّ صغير يؤلمك اليوم؟

على أمرٍ بسيط ييسره لك؟

على رزقٍ يسير يضعه بين يديك؟

بلى سبحانه، قادرٌ على ذلك وأكثر..

وهو عليه هيّن!

توكّل عليه، فبه يبدأ الخلق وإليه ينتهي..

وهو معكَ من قبل أن تخلق وبعد أن تموت..

فمن لك غيره؟

" إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ"

(الزمر: 10)

الصّبر،

عبادة لا تحتاجُ وقتاً، ولا مالاً، ولا ظروفاً معيّنة!

كلّنا نحتاج أن نصبر،

نصبِر على الطاعة في زمنِ القابض على الجمر،

نصبِر عن المعصية في زمنِ المعاصي التي تطاردنا حتى في بيوتنا،

نصبِر على النّعمة حتى لا تبعدنا عن الله،

نصبِر على النقمة حتى لا ترهِق ذواتنا،

أن تصبِر لا يعني أن تتجرّد من مشاعر الألم،

بل يعني أنّك بالرغم منها -ومع وجودها- تعيش برضا!

ليسَ أمراً سهلاً حتماً..

لكن المقابل؟ "بغير حساب"!

"حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"

(فصلت: 20)

ليسوا أصحابك،

ولا أهل بيتك،

ولا أمّك وأبوك،

ليسوا أولئك الذين تستتر منهم عند المعصية،

أولئك الذين تخبئ عنهم جانبك السيء،

ليسوا هم!

بل أجزاءك الأقرب إليك،

"أنت" تشهد على نفسك، كلّ شيءٍ يتخلى عنك حتى جسدك!

يومها أنت وعملك والجزاء وفقط.

اللهم سلّم سلّم!

" وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ"

(فصلت: 51)

المريض الذي يعرفُ الله في مرضه، الطالب الذي يعرفُ الله في اختباره، الفقير الذي يعرفُ الله في فقره!

طبيعة الإنسان الجاهل، الغارق في الدنيا..

فمتى ما جاء الرخاء نسيَ وأعرض!

"أنعمنا"

الله الذي ينعم، كلّ نعمة فمن الله، نعمةُ البيت، العائلة، المال..

كلها من الله.. فإذا أبعدَتنا هذه النعم عن الله، فقد صارت نقمة علينا لا نعمة!

اللهم لا تجعلنا منهم..

واجعل نعمتك علينا وعطاؤك قربةً إليك وإلى مرضاتك..

" اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ"

(الشورى: 19)

الآية التي تذيب القلب !

اسم الله اللطيف، يرفق بعباده، يرحمهم، يجيب دعوتهم..

"عباده"

أجمل ما يوصف به إنسان، أنه عبدٌ لله!

أرقى الوصوف وألطفها وأكرمها..

"يرزق من يشاء"

يختار أن يوزع الرزق كما يريد، لحكمة بالغة،

قد نعرفها وقد لا نعرفها!

فما بالنا بربّ يسمّي نفسه اللطيف،

بربّ يتودد إلى عباده، يرفق بهم، يغمرهم برحماته..

اللهم لا تحرمنا فضلك.

" وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ"

(الشورى: 37)

جاءت مقترنة بأي آية؟

"والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش"

إذاً، نعم؛ الأمر بهذه الخطورة!

عندما يفقد أحدنا نفسه وعقله، لا يكون هو!

وفي هذه الحالة النفسية، ومع كلّ غضبه..

يغفر!

ولأن الله يعلم تماماً كيف تعمل النفس البشرية،

فإنه يعطي على هذا أجوراً كثيرة،

عندما تغضب من طفلك، خادمك، سائقك،

تذكر..

"هم يغفرون.."!

"ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ"

(محمد: ١١)

لم يقل الله تعالى أن لدى المؤمنين هذا الحليف أو ذاك،

ليس المغزى بمن يقف معنا من "دولٍ لها ثقلها"

أو سندٍ من شخصٍ ذي سلطة،

كلّها أسباب، لا تغني شيئًا إن لم يكن مسبب الأسباب معنا!

"الله مولى الذين آمنوا"

هو تعالى مولاهم، هو ينصرهم، هو يؤيدهم، ولو وقف العالم كله ضدهم!

مع من؟

"الذين آمنوا"

حققوا شرط الإيمان، ليسوا مسلمين في جوازات السفر فقط،

بل مؤمنين بقلوبهم وأرواحهم، مؤمنون بحق!

"وأن الكافرين لا مولى لهم"

ولو كان العالم كله معهم!

كل هؤلاء هباء منثور.. ويقولها الله واضحة، "لا مولى لهم"

أي كافرٍ لا تسنده قوّة، لا نصير له..

قد تكون له الدنيا بأسرها، لكن المؤمن له ربّ الدنيا والآخرة وملك السماوات والأرض،

فكيف يُهزم؟

" وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِين"

(الذاريات: 43)

من هم ثمود؟ نموذج القوم الكافر الجاحد المكذب لرسله..

النموذج الذي يتكرر في كل زمان ومكان..

سواء كان فرداً.. أو أمة!

"تمتعوا حتى حين"

كل الظلم على هذه الأرض، كل الكفر، كل المعاصي، كل الاضطهاد والقتل..

إلى متى؟

"حتى حين"

إن الله يُمهل حتى يأتي وعده ووعيده.. فلا يغرنّك تقلب الذين كفروا في البلاد!

سنة الله في عباده، أن يمتع الكافرين..

فتراهم يعيثون في الأرض الفساد،

يتمتعون بمناصبهم، بأموالهم، بنفوذهم، بهيبتهم..

لكن!

"حتى حين"

كيف كانت عاقبة ثمود؟ أهلكهم الله!

وسيهلك الظالمين.. وسينتقم –سبحانه- بعباده المظلومين،

سيرى الذين كفروا جزاءهم حين يريد الله أن يرفع عنهم الإمهال!

فاصبر إن وعد الله حق.

" أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ"

(الواقعة: 69)

من بين كلّ المرّات التي نشربُ فيها الماء خلال اليوم،

كم مرّة تفكّرنا فيه؟

"أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون"

اعتدنا مع تطوّر العلم أن نشعر بأن لدينا القدرة على صنع أمور كثيرة، حل مشكلات، اختراع سبل راحة.. جعل الحياة وفق ما نحب..

لكنّ مع ذلك، فإن أبسط تفاصيل حياتنا تشعرنا بالعجز، والحاجة لربّ يسقينا ويروينا في كلّ حين، يتفضّل علينا بجزيل النعم..

فحتى في شربة الماء.. " لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون" !

كلّما ارتويتم، تذكروا ضعفنا وضعف أجسادنا، وعظمة العطاء الإلهي، في شربة ماء!

" قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ"

(المجادلة: 1)

الآية جاءت في موقف تشريع،

لكنّها تحمل رحمات عظيمة، ولطفٍ جميل،

"سَمِعَ"

الله يعلم، ويسمع، ويرى،

ما نكون في شأنٍ، ولا نمرّ بمواقف، ولا نحزَن لمصائب،

إلا والله يعلم بها، ويسمع، ويرى..

"تشتكي إلى الله"

اشتكّت إلى الله ما لاقت من ظلم، فنصَرها الله من فوق سبعِ سماوات، وأنزل فيها قرآناً!

سلّم أمرك لله وكُن موقناً بالإجابة،

فليسَ غيره قادر على جبرِ القلوب، ونصرِ المظلوم، وإجابة الشّكوى..

فيا من تسمعُ دعاءنا، وترى مكاننا، أصلِح لنا شأننا كله،

ولا تكِلنا إلى أنفسنا طرفةَ عين..

" إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّه"

(الممتحنة: 4)

ما مقياس ولاءنا؟ صداقاتنا؟ اجتماعاتنا؟ جلساتنا؟

من نصاحب؟ وبمن نختلط؟

نحن في دنيا فتنٍ لا يأمن فيها أحدنا على دينه ونفسه..

وبالرغمِ من ضعف نفوسنا، وديننا الذي نتعلّق به بخيوطٍ رفيعة تخشى الانفلات..

فإنّ كثيرون منّا يوالون ضعاف/عديمو دين، بحجةِ الانفتاح..

جلساتٍ مختلطة.

تهنئةٍ بأعيادِ الكفرة.

أحاديث تافهة.

ليكن لسان حالنا، مع من لم يكن همّهم دينهم: "إنا برآءُ منكم"!

" رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ"

(الممتحنة: 4)

الإنسان ضعيف ضعيف..

ومن دون هذه القوة الإلهية التي يتشبّث بها؛ لتاهَ في معترك الحياة.. ولاستنزف طاقته وجهده وفكره.. ولم يصل!

لأن ما يملكه أحدنا من قوة محدود.. وما عند الله لا حد له!

التوكل..

العبادة التي تشعرنا بأننا لسنا وحدنا..

وبأننا لا نصرّف أمورنا بجهدنا..

وأننا لا نملك حتى أن نجعل قلوبنا تدقّ لثانية أخرى..

فما بالنا بأمور أكبر وأعظم..

لا يقدر عليها إلا من ملك الأرض والسماء، وما بينهما!

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا"

(التحريم: 8)

لماذا؟

"عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار"

يا الله؛

ما هذه الرحمة؟

كلّ الآيات الدالة عليه سبحانه، كل دعوات المغفرة والصفح والعفو..

كل الابتلاءات، خيرها وشرها.. لماذا؟

حتى نتوب..!

ولمَ نتوب؟

حتى ندخل -نحن- الجنة،

حتى نحصل -نحن- على المغفرة وتكفير السيئات..!

هو غنيّ عنا،

هو غني عن توبتنا،

عن أعمالنا الصالحة،

عنّا كلنا وعن خلقه أجمعين!

ومع ذلك يفرح بأوبتنا وتوبتنا،

ومع ذلك بكل رحمة يدعونا: "توبوا إلى الله توبة نصوحا"!

"كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ"

(التحريم: ١٠)

لن ينفعك أن يكون أباك صالحاً، أو أمك صالحة،

أو زوجك أو زوجتك أو أيّا كان..!

قد يتنفع شفاعة أحدهم في الدنيا،

قد ينفعك قريب ذو منصب،

أو رجلٌ ذو مال وسلطة..

أو صديق في مكان عملٍ مهم..

لكن عند الله،

لا ينفعك أحد،

ستأتي أنت وعملك فقط!

" فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ"

(الحاقة: 47)

إذا كان الله تعالى يقول في نبيّه..

"ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين"!

وهو عبده وحبيبه وآخر أنبيائه..

لكنّه إذا عصى الله تعالى، فله من الله العقوبة!

فما بالنا بنا نحن؟

أنُفلِت من عقاب الله إن عصينا؟

أنضمن أن يُغفر لنا ونحن في غفلةٍ لاهين؟

أنظنّ -حقًا- أن الله لن ينزل علينا عذاباً من عنده؟

"وإنه لتذكرة للمتقين"

فلنجعل من القرآن لنا تذكرة وعبرة..

عسى أن نكون من المتقين.

" فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا"

(نوح: 10)

ولو أنّنا في ظلماتِ بحرّ لجّي يغشاه موجٌ من فوقه موج..

بحرٌ من الذنوب والغفلة والتقصير..

فاستغفرنا الله لغفر وصفح!

أخرجوا قلوبكم من الظلمة بالاستغفار..

فالله وعد ووعده الحق؛ بأنه كان غفّارا!

" يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ "

(المدثر: 1-2)

في زمنٍ يتوارى فيه الحقّ خلفَ الجدران،

ويبقى غريباً في غيرِ أهله..

لا ينبغِي أن نتدثّر!

"قُمْ"

فالحملُ ثقيل ثقيل،

والجهادُ قائمٌ بالدّعوةِ إن لم يكن بالسّيف،

أهلك، معارفك، بيتك.. "قُم فأنذِر".

أن تكون لكَ رسالة تعيش لأجلها وتموت في سبيلها،

لا أن تأكل وتشرب وتنام.. وفقط.

الهدف أعظم من حياةٍ كالأنعام،

وأعظمُ من راحةٍ في ليلٍ ونهار..

الأمانة ثقيلة والأمرُ ليسَ بالهيّن..

فاللهمّ أعنّا وانفع بنا .

" وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ "

(القيامة: 22)

نُضرة الوجه يومها، انعكاسٌ لنورِ الله تعالى،

أو ربّما لعظمِ فرحة العبدِ بما أُعطى!

قد ينتعشُ القلب أحياناً لرؤية منظرٍ طبيعيّ أخاذ..

وقد يفرح لرؤيةِ وجهٍ جميل..

وقد يبتهج لصورةِ طفلٍ برئ..

لكنّ كل الجمال الذي نراه في الدنيا،

وما لا نراه كذلك!

كل ما يخطر على أذهاننا من جمال..

فالله تعالى أجمل!

أتعرفون شعور الشوق للحبيب الذي تغنّى فيه الشعراء،

وكتب فيه الأدباء، وزخرت به الآداب والروايات..

هنا شيء أرقى وأجمل.. الشوق لله تعالى عندما يُطفأ بهذه الرؤية..

كماءٍ بارد يروي عطش المشتاق القادم من سفر طويل طويل!

اللهم ارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم..

اللهم لا تحرمنا، اللهم لا تحرمنا!

" لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا"

(النبأ: ٣٥)

من نعيم أهل الجنة..

أنهم لا يسمعون اللغو والكذب!

وأيّ نعيم هذا؟

تصوّر أن كل كلام البشر الذي يغيظك اليوم،

كل الكذب واللغو والكلام الذي لا معنى له، الكلام الذي يضيق به صدرك، لن يكون له وجود!

عندها لن تفكر مرتين في كلام أحد من البشر،

فلا شيء إلا الصدق،

عندها لن تتخاصم مع أحد، فلا فحش في الحديث ولا خلاف،

عندها لن تكره أحداً ولن يكرهك أحد،

لن ينتقدوك، لن تعيش تحت ضغط الخوف من كلام المجتمع..

لن يكون لكل هذا الهم أي وجود..

فوالله إن راحة البال هذه من أعظم نعم الجنة!

فاللهم لا تحرمنا، اللهم لا تحرمنا..

"يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ"

(النازعات: ٣٥)

(ما سعى)..

كلّ شيء، من خيرٍ وشر.. كلّ عملٍ عملته.. ونسيته!

ستتذكره في يومٍ ما..

يومَ يتذكر الإنسان ما سعى!

تخيّل أنك تقف لتحاسب في ذاك اليوم المهيب،

وتُذكّر بأعمالك دقّها وجلّها،

في تلك الساعة وتلك الدقيقة، وقد كنت وحدك لا يراقبك إلا الله،

فعلت كذا وكذا،

تُذكّر بذاك اليوم الذي أسعدت فيه طفلاً،

وابتسمتَ في وجه عامل،

وتصدقت ببضعِ ريالات،

وتُذكّر بالصلاةِ غفلت عنها في يوم كذا،

وكلمةُ غيبة رميتها في يومٍ آخر..

كلّها، بتفاصيلها، تتذكرها!

ولا تستطيع أن تنكر أيًّا منها، لا مجال لمحاولات الالتفاف، أو الزيادة والنقصان،

كلّ شيء يمرّ بذاكرتك كالشريط السريع الواضح الذي لا لبس فيه!

اللهم اجعل لنا من أعمالنا ما نفرح بتذكّره يوم نلقاك!

" إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"

(التكوير: 1)

الرّوتين اليوميّ، منذ خلقنا إلى قيام الساعة،

شمسٌ تشرقُ كلّ صباح، لتغيب في آخر اليوم..

أبسط الأشياء التي اعتدناها..

لن تدوم إلى الأبد!

سينتهي كلّ شيءٍ فجأة،

ستأتي نهاية لهذه الأرض وما عليها..

نهاية مخيفة، مُرعبة.. شيءٌ ليسَ كزلزالٍ في اليابان أو فيضان في أندونيسيا..

شيءٌ مختلف تماماً..

أبعد مما قد نتصوّر..

وأقرب كذلك مما نتخيّل..

واقعٌ لا محالة.. "إذا" وكأن هذا المستقبل قريبٌ جداً.. بل محسومٌ حتماً..!

ولا أمن يومئذٍ إلا لمن أمّنه الله.. فاللهم النّجاة!

" وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ"

(التكوير: 10)

مجرّد أن نتصوّر أن كلّ أعمالنا، دقّها وجلّها..

ستُعرض على كل الخلائق يوم القيامة.. أمرٌ مرعب!

يتوارى أحدنا خلفَ ستر الله له في الدّنيا..

يخشى أن يطّلع أحدٌ على عيوبه، على معاصيه.. حتى على خطراتِ نفسه أحياناً..

فما بالنا يوم القيامة بصحائف أعمالنا تُنشر أمامِ كلّ البشر..

كون هذه الأعمال تنشر أمامنا نحن، ولو كانت أمامنا نحن فقط..

هو أمرٌ مؤلم بحد ذاته..!

الكذبة البيضاء التي كذبتها..

المسؤولية التي أهملتها..

الصورة التي لم تغض بصرك عنها..

الصلاة التي تثاقلت عنها..

كلّها مكتوبة..!

في المقابل،

صلاتك في جوف الليل..

دمعتك في سجدةٍ طويلة..

صدقة لم تدرِ عنها شمالك..

كلّها ستعرض أيضاً! فما الصحف التي تريدُ أن تُنشر؟

" الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ"

(الأعلى: 3-4)

كل ما خلقه الله "سويّ" بشكل مثالي، مبهر!

خلقُ الإنسان من اللحظة التي يتكون فيها في بطن أمه..

خروجه للحياة، خلايا جسده الدقيقة جدا..

سريان الدم في شرايينه، انتقال المواد من الدم إلى الخلايا..

تخزين طعامه، تطوّر معدته، حليب أمه!

"خلقَ فسوى"

خلق النباتات أشكالاً منوعة، مواسم محددة، مذاقات مختلفة..

"خلق فسوى"

حجم الأرض، حجم الشمس، بعدهم عن بعض، حركة الأرض، تضاريسها، تربتها، كلّ شيء دقيق دقيق!

"قدّر فهدى"

الله الذي خلق وسخّر هذا الكون بكلّ إعجازه للإنسان،

الله بعظمته وقدرته ورحمته ولطفه،

الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، يأمرنا أن نسبحه..

"سبح اسم ربك الأعلى"

ولن تنزّه الله وتعظمه إلا إذا عرفته..

ولا تعرفه إلا إذا تدبرت آياته، وتأملت عظمته في كونه..

فسبحان ربي الأعلى، سبحانه!

" لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"

(التين: 4)

عندما يقول تعالى: "أحسن"، فهذا يعني بكل دقة أنّه الأفضل على الإطلاق..

يعني أنه مهما بحثنا فلن نجد أحسن من صنع الله..

لا يوجد تقويمٌ أفضل!

جعل له عينان، هل سيكون "أحسن" لو جعل له ثلاثة مثلا؟

لو كانت له كلية واحدة بدل الاثنتين؟

لو كان له فمان بدل الواحد؟

لو كان يزحف ولا يمشي؟

أو كان له جناحان مثلا؟

لو كان عقله أقل ذكاءً (أو حتى أكثر!)؟

لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال أن يكون أفضل مما هو كائن..

لماذا خلق الله الإنسان في أحسن تقويم؟

ليكرّمه ويعلي شأنه..

أعطاه المنهج ليرتقي به روحياً كمالاً من عند الله..

ولكن هذا التقويم يختلّ ويردّ في أسفل سافلين.. إذا فرّط أحدنا بما أنزل الله..

إذا لم يكن أهلاً لنعمة الله عليه.. لتكريم الله له..

فاللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات..

واجعل لنا أجراً غير ممنون..

خاتمة

ختاماً..

ستغلق هذه الصفحة والكتاب لم يكتمل بعد..

شيءٌ كهذا هو صفحةٌ لا نهائية من التأمل،

لا ليومٍ ولا لشهرٍ ولا لسنة،

بل لعمرٍ يمتدّ ولا يكفي!

ولا لآيةٍ ولا لعشرٍ ولا لسورةٍ أو سورتين..

ففي كلّ حرفٍ من القرآن ألفَ عبرة وأكثر..

هل انتهى الكتاب؟

لا، لكن البقيّة لديك أنت!